الفصل الخامس

اجتماع الامراء

«ملك الله على الأمم. الله جلس على كرسي قدسه.
شرفاء الشعوب اجتمعوا»

المزمور 47

خلال صيف عام 1096 وبينما كانت الكارثة تستبد ببطرس الناسك ورجاله، وفي حين كان يهود ألمانيا وأوروبا الوسطى يُقتلون بإسم المسيح، كان مختلف الأمراء والنبلاء الذين كانوا استجابوا لنداءات البابا أوربان لحمل الصليب ـ جاهزين لمغادرة بلادهم، ولما كانوا أقل تهوراً من بطرس وأقل تعطشاً لسفك الدماء من امش أوف ليزنغن فقد تحققوا أنه ما من حملة عسكرية بهذا الحجم ممكنة النجاح ضد الأتراك ما لم تكن معدة ومهيئة بشكل دقيق، ومع ذلك فمن الخطأ التحدث عن الحملة الصليبية التي كان فرسان العالم المسيحي يعدونها كحملة وحيدة، لأنها لم تكن على الاطلاق كذلك، بل كانت عبارة عن عدة حملات شبه منفصلة تحت أمرة لورداتها الذين اشتركوا معاً في الإيمان المسيحي، وجمعهم هدفهم المشترك، وليس تحت ولاية قائد عال، حيث كانت جيوشهم مختلفة في الحجم بقدر اختلاف قادتها في الشخصية والمزاج والحافز لأخذ الصليب، بالإضافة إلى انفراد كل منهم في توقيت تحركه شرقاً، ومن المهم أيضاً فهم أية نوعية من الرجال كانوا لأنهم كانوا الأشخاص الذين تعين عليهم تشكيل وتكوين الممالك الصليبية الأولى في الأرض المقدسة، ورغم إسهام بعضهم أكثر من الآخرين.

وقد كان أولهم هيوج أوف فير مانديوس الابن الأصغر لملك فرنسا هنري الأول، فقد تميز بمظهر جيد ولسان متحدث، أكثر من قوة شخصية، أو قدرة عملية، وبعد أن حشد جيشاً صغيراً من التابعين من مقاطعاته المتواضعة في شمال فرنسا، انطلق إلى إيطاليا في آب، ولم يكن أحد يعلم ما حقيقة دوافعه للتحرك، ولربما كان قد ورث شهوة التجوال والتسفار من أمه الاسكندينافية. آن أميرة كييف ومهما تكون دوافعه. فقد قرر أن يحيا لدى وصوله القسطنطينية باحترام مناسب لشخص تجري في عروقه دماء ملكية فرنسا وبعث برسالة إلى الامبراطور الكسيوس يطلب فيها أعداد استقبال مناسب، وتبع رسالته إرسال مجموعة صغيرة من الرسل الذين طلبوا نفس الشي من الحاكم البيزنطي في ديرا خيوم الميناء الصغير على الساحل الشرقي للبحر الأدرياتيكي، الذي قصده ورجاله مبحرين من ميناء باري وكما ينبغي وافت رسالته القسطنطينية حيث أثرت على الأميرة آنا كومينا ابنة الامبراطور ذات الأربعة عشر ربيعاً فهي لم تستطع التغاضي عن الوقاحة السخيفة لهذا البربري القادم من الغرب ولا عن غطرسته وتبجحه في إرسال مثل تلك الطلبات إلى أبيها، ولكن شروع هيوج في حمل الصليب في الواقع هام لأن أخاه الملك فيليب منع من القيام بذلك لأنه كان محروماً كنسياً، ولعله كان بربرياً في نظر آنا البيزنطية كما كان في الواقع جميع الغربيين في عيون البيزنطيين، ولكن كونه أصبح صليبياً عنى ذلك موافقة البيت الملكي الفرنسي على المشروع الذي دعا له البابا أوربان.

وجمع هيوج خلال طريقه عبر فرنسا، بعض الرجال الذين تبعوا امش أوف ليزنغن في حملته المشؤومة، ثم شق طريقه جنوباً عبر ايطاليا إلى باري في ابوليا التي كانت ممكلة نورماندية في ذلك الوقت، ومليئة بالنورمانديين الذين كانوا يعدون العدة ليقوموا بحملتهم الصليبية، وجرى كلّ شيء على ما يرام، ولكن سرعان ما بدأت الأمور تجري على نحو خاطئ ومدمر بعد إبحار أسطوله خارج ميناء باري في أوائل تشرين الأول، فقد مضى معظم السنة وليس هناك

من أحد يحب الانطلاق في رحلة بحرية بعد انقضاء الصيف، لأن عواصف الشتاء أخافت الجميع، كما كانت أشهر أيلول وتشرين الأول رديئة السمعة برياحها وكل ما كان بامكانه ذلك كان يحاول تجنبها، ولكن هيوج رأى أنه إذا لم يسافر فلن يصل القسطنيطينية قبل قدوم الشتاء، ولذا ركب البحر وصادفته عاصفة في وسط البحر الادرياتيكي حيث غرقت بعض قطع سفنه بمن كان فيها أما الباقي فدفعتهم الأمواج إلى الصخور الجرداء لساحل اليرنا اما هيوج فطرحه البحر ذليلاً في أقصى الشمال من ميناء ديراخيوم حيث أصبح مرتبكاً ومبللاً ومحطماً إلى درجة لم يعد في مزاج ليفاخر بدمه الملكي، وعثر عليه بعض الرجال الذين أوفدهم الحاكم المحلي الذي علم من خبرته الطويلة أن رياح المناخ المعتدل لم تكن في يوم من الأيام تحترم الأمراء.

ومثل استقباله السابق، عومل بأعظم الاحترام من قبل مضيفه البيزنطي الذي دعاه إلى الشراب والطعام بشكل يليق بمكانته الاجتماعية الرفيعة، وفي الوقت نفسه راقبه بحذر وترصد حركاته، وأخيراً نقل إلى القسطنيطينية حيث تبنى الامبراطور السياسة نفسها تجاهه، فاستقبل بالحرارة والاحترام ونثرت بين يديه الهدايا، ولكن حرية حركته ضبطت بحذر، إن لم تكن على نحو تطفلي دقيق، وهي حقيقة أزعجت بعض تابعيه الذين اتهموا سراً الامبراطور بمعاملته كأسير.

وفي حين لم تكن القضية حقيقية بشكل محكم، هناك بعض التسويغ للاتهام ذلك أن الامبراطور كان قلقاً بما فيها الكفاية، وكان هيوج أول الأمراء الغربيين وصولاً إلى القسطنطينية على رأس جيشه الخاص، كما كان الامبراطور قلقاً بشكل مفهوم أن يكشف نواياهم، وعندما ناشد الامبراطور الغرب ضد الاتراك، لم يسأل، ولم يعقد صفقة أو اتفاقاً لغزو امبراطوريته بسلسلة كبيرة من الجيوش المستقلة، وأمل فقط بمتطوعين للقتال كمستأجرين في جيشه الخاص وتحت أمرته ولم يدع هيوج أوف فيرماندويوس يبتعد عن نظره حتى لو كشف نواياه، أو أخذ ميثاق إخلاصه أو لم يأخذه منه، فهو لا يثق بالافرنج كما أصبح جميع المسيحيين الغربيين يدعو بذلك، ولم يرغب

بالتعامل معهم، لخبرته بهم في الماضي ـ خاصة النورمانديين ـ الأمر الذي لم يشجعه لكنه كان على استعداد لاطرائهم وبهرهم بالمال والثروات الضخمة، عله يستطيع كسب ولائهم ولم يطل الأمر كثيراً حتى تغلب على هيوج وحصل على يمين الولاء منع بعد قليل من التردد، ومع ذلك لم يثبت أن تابعي هيوج كانوا مثله يمكن كسبهم بسهولة.

وكان غودفري أوف بوليون دوق اللورين الأدنى هو الشخص الثاني الذي زحف شرقاً تحت راية الصليب، الذي كان غالباً ما رسم بالألوان الخيالية الزاهية والوردية، وكان صورة مصغرة عن فارس شوسر الارستقراطي في قصص كانتبري، وفي الحقيقة كتب مؤرخ الانكليزي هوهارولدلام قبل حوالي خمسين سنة يصف كيف ومتى انطلق غودفري واخواه يوستاس وبلدوين في الحملات الصليبية، حيث تبعتهم الأعين ممتطين خيولهم، مقتفين أثر شباب اللورين الثلاثة ذوي الأعين الرمادية، وضاحكين لحبورهم وحول بنيانهم الجسدي وفخارهم البارز، وكان مطرزاً على ثيابهم الجلدية فوق القسم اليميني من قلوبهم صليب أحمر، وتطوق أعناقهم مسابح كهرمانية اللون، وتتدلى شعورهم الذهبية فوق أكتافهم، إنها صورة خيالية، ولكنها مضللة والحقيقة أن غودفري كان رجلاً وسيماً طويلاً وذا شعر ناعم، لكن ليس كما جنح خيال الكاتب فوصفه بشاب ذي عيون رمادية فقد كان في ذلك الوقت يتجاوز السادسة والثلاثين عاماً، ورغم سلوكه الجميل وجاذبيته، زاد مقدار الاموال التي كان يحتاجها لتمويل حملته بشكل يشبه ابتزاز اليهود في دوقيته، رغم أنه فعل ذلك بلطافة ودون اللجوء إلى عنف امش واختلاسه، أما بلودين أصغر الأخوة الثلاثة فيناسب الصورة أقل من غوفري، حيث كان أطولهم بلون داكن بقدر ما كان أخوه الأكبر أشقر، وفي حين كان غودفري جميلاً وساحراً في اللقاء، كان بلدوين بارداً ومتشامخاً ومتكبراً، ولما قدر للأخ الأصغر أن يكون لصالح الكنيسة، فقد تدرب على الكهنوتية، ولكن لم يعمل كاهناً لعدم مناسبة ذلك لذوقه. وتخلى عن الكهنوتية بعد فترة وجيزة، وكان لديه نزوع

هائل إلى رفاهية الحياة أكثر من أن يقسر نفسه على النظم المقدسة، فقد كان يميل إلى ملذات الجسد، الأمر الذي جعل غودفري لا ينجذب إليه كثيراً ويفضل عليه بلدوين الذي كان من أخطر الأمراء الصليبيين الأوائل، قادراً ومنفرد الرأي وغير رحيم، وكان يغتنم المنفعة الذاتية بأيد مفتوحة في الحملة الصليبية، ونظراً إلى أنه كان الابن الأصغر في عائلة نبيلة، لم يكن لديه مشاريع عن أراض وراثية في الغرب، لهذا ذهب إلى الشرق ليعوض هذا النقص، ومن الصعب القول فيما إذا كان مهتماً في القدوم من أجل تقديم المساعدة لأخوانه المسيحيين في حاجتهم إلى التحرير من الأتراك، أم لا، ولكن من المؤكد أن عليه تجريب حظه في الشرق، لأنه اصطحب معه امرأته النورماندية، وأطفاله وبالتالي أظهر بوضوح النية لديه في العودة.

ورغم أن الأخوة الثلاثة قادوا جيشاً مؤلفاً من الآف الفرنسيين الشماليين وأبناء اللورين والألمان خلال بلاد هنغاريا، فقد كان عبورهم هادئاً ومسالماً، فبعد خبرته عن بطرس الناسك وامش ورجالهما، لم يكن لدى الملك كولومان أية فرصة من أجلهما وطالب بوجوب استسلام بلدوين كرهينة لقاء التصرف الجيد من أولئك الصليبيين الجدد، ووافق بلدوين على مضض. كما أعلن غودفري من جانبه أن أي عمل عنف من جانب رجاله سيكون لقاؤه الموت، ونتيجة لذلك سارت الأمور بشكل حسن حتى غادر الجيش أراضي هنغاريا، وعبر داخل الأراضي البيزنطية حيث استقبل الصليبيون بالاشاعات التي أخبرت بكل شيء عن السجن الفعلي لهيوج فأصبح هؤلاء في غضب وشرعوا في ثورة من أعمال العنف والسلب التي خربت قليلاً حول المدينة الصغيرة سيليمبريا على مسافة خمسين ميلاً غرب القسطنطينية، وأرسل الامبراطور رسله إلى غودفري يحتج على تصرفات رجاله. وأعاد غودفري بشكل متأخر ترتيب قواته قبل التحرك، ووصل إلى أسوار القسطنطينية قبل يومين من عيد الميلاد وخيم عند مياه القرن الذهبي.

وإذا كان هاماً جداً بالنسبة للامبراطور إقناع هيوج أوف فيرماندیوز لأخذ

موثق ولاء نفسه، فإنه كان هاماً أيضاً أن يستميل غودفري وإخوته وحشد فرسانه المساعدين على رأس جيشهم الأكبر والاضخم للقيام بنفس العمل، ورغم ضغط هيوج على زملائه للموافقة على طلب الامبراطور كان غودفري متحيراً وغير راغب بالموافقة. ذلك أنه كان مديناً بالولاء للامبراطور الغربي هنري الرابع ولم ير سبباً للقسم بالولاء لرجل غريب آخر لم يعرفهو ولذا فقد رفض، وبالمقابل أصبح الكسيوس حذراً وغاضباً، فقد تأكد جميع مخاوفه وقرر قطع المؤن عن الأفرنج، فلا يأكلون إن لم يتعاونا معه، وأخفقت هذه المعاملة في تخويف بلدوين الذي قاد رجاله في فرق أغارت على ضواحي المدينة ووضع يده على أي شي أراده دون إنتظار إذن للقيام بذلك، حتى تراجع ألكسيوس، ولم يكن هذا بالطبع بداية مبشرة بالنجاح لعلاقات الامبراطور مع ضيوفه الجدد، ولم يتوطد السلام بينه وبينهم طويلاً.

وانتظر ألكسيوس إلى مضي عيد الميلاد قبل تجديد محاولة لاقناع غودفري لتقديم قسم الولاء، ولم يكن الوقت في جانبه لأنه يعلم أن جيوشاً أخرى من الصليبيين كانت في طريقها إلى بلاده، وصمم أن ينجح في محاولته قبل وصول تلك الإمدادات الغربية لتقوية هؤلاء، وبقي غودفري وأخواه في عنادهم، ومرة أخرى عاد ألكسيوس مرغماً على إنقاض المؤن عن الجيش، ولكنه لم يقطعها بشكل كلي، فرد الصليبيون مرة أخرى بالإغارة على الريف والقرى المجاورة حيث اصطدموا مع بعض قوات المرتزقة من البشناق التي كانت تشغل دور الشرطي في المنطقة، وكانت قوات البشناق من قبيلة تركية زودت الامبراطور بأفضل رجاله االمحاربين، بنفس الطريقة التي قامت بها قوات الغورخاز بتزويد الجيش الهندي ببعض أفضل محاربيه المشهورين في أيام الحكم البريطاني في الهند، وعندما اكتشف الصليبيون أن العديد منهم كانوا مسلمين لم يعرف غيظهم وقلة ثقتهم بالإمبراطور حداً، وأصبح بلدوين غاضباً كثيراً بحيث وضع كميناً لقوات البشناق وقتل العديد منهم وأسر ستيناً آخرين، ومن الصعب تصور ما قدمه موتهم من خدمة للقضية الافرنجية، وبعد

حين تمكن الجانبان من تحقيق هدنة بينهما لكنها لم تدم طويلاً.

ولدى تحققه من هذا، تحرك غودفري ربما بدافع من قبل بلدوين إلى أسوار المدينة حيث شن هجوماً واسع النطاق على أحد أبوابها، وكان ذلك في يوم خميس من الأسبوع المقدس، وفوجئ البيزنطيون كثيراً، وكانوا غير مستعدين مطلقاً لمثل هذا الهجوم، لكونهم أناساً يدعون الإيمان بالمسيحية، ولم يفكروا قط بالقيام بهجوم على إخوانهم المسيحيين في يوم من الأيام المقدسة، وفي أثناء ذلك، كان شيء من الفزع يسري في المدينة، غير أن أسوارها كانت منيعة كثيراً، وتدبر البيزنطيون أمرهم بإحكام إغلاق البوابة التي بقيت تحت الهجوم، ولم يسع الصليبيون أن يفعلوا كثيراً غير التقهقر إلى مسافة أمينة بعد قتل سبعة مدافعين، وفي اليوم التالي، يوم الجمعة الحزينة أرسل ألكسيوس مبعوثيه للتكلم مع غودفري، ورغم حرمة ذلك اليوم هاجمهم الصليبيون دون إنتظار سماع ما لديهم، وكان هذا كثيراً بالنسبة للامبراطور، الذي رُوع كمسيحي، بحيث نفذ صبره، وأصدر أوامره لبعض القوات الامبراطورية بالهجوم على رجال غودفري وتلقينهم درساً جدياً، وبينما كان رماة الأسهم البيزنطيون يرمون من فوق أسوار المدينة عل الأفرنج المدحورين عمدوا على نحو غير مقصود إلى عقر خيولهم بدلاً من محاولة قتل أخوانهم المسيحيين في مثل ذلك اليوم، وشنت فرقة من الفرسان البيزنطيين هجوماً عليهم من البوابة المجاورة، وكان هجوماً فنياً بحيث ضمن استئصال الأفرنج مباشرة.

وأعادت الهزيمة الساحقة أخيراً الرشد إلى غودفري، وتحقق من ضعفه أمام الامبراطور الذي كان لا يزال بمقدوره قيادة قوة أضخم كثيراً للتخلص من الصليبيين، ولم يعقد شروطاً في الحال، كما لم يكن لديه الوقت قبل قبوله بالمحتوم، ولكن ترك الامبراطور يعلم أنه سيقدم إلى المدينة ليراه، إذا أرسل أولاً بعض الرهائن مقابل أمانته وسلامته، وكان على الأرجح يوم عيد الفصح عندما تقابل الرجلان. وأعطى غودفري وأخواه، بالإضافة إلى أرفع النبلاء في

سلكه، وفيهم ابن عمه ويدعى بلدوين أوف لابروغ ـ أعطوا جميعاً يمين ولاء لألكسيوس الذي رحب بهم مباشرة، وقبلهم قبلات السلام دلالة على اعتباره إياهم أولاده بالتبني، وأمطرهم بالهدايا، واستضافتهم بفخامة جليلة على مأدبة امبراطورية، وبعد أيام من راحته، نقلهم وجيشهم عبر بحر البوسفور ليخيموا عند الشاطئ الآسيوي قبل وصلو قوات متوقعة من الصليبيين تزيدهم قوة.

وكان ذلك مناسباً وفي وقته، فقد بدأت حال مغادرة غودفري مجموعة كبيرة مختلطة وغير منظمة من الصليبيين المتخلفين الذين كان معظمهم من المتشردين في الوصول على شكل شراذم عبر أراضي البلقان على أمل اللحاق بغودفري ووصلت هذه الشراذم إلى ضواحي القسطنطينية، وبرهن رجالها كسابقيهم أنهم غير متعاونين، وأنهم محبين للقتال، ومن أجل التعامل معهم احتاج الكسيوس إلى كل اللباقة والجلد على حسابه الخاص، وعاد مرة أخرى وطلب من قادتهم تقديم يمين ولاء له، ومرة أخرى لاقى مقاومة مشاكسة، ولكنهم أخيراً وافقوا ودعا الامبراطور لتلك المناسبة غودفري وبلدوين لحضور التشريفات وكان القادمون الجدد سيئي التصرف وفظين في معاملتهم، وعندما تجرأ أحدهم ليجلس على عرش الامبراطور وبخه بلدوين بشدة، ولجأ الرجل في ارتباك إلى العدوانية، وحاول بصوت عال أن يسوغ موقفه بالشكوى بوجوب عدم جلوس الامبراطور في حين كان يقف رجال شجعان، وأطال ألكسيوس السماع لكلمة الرجال وطلب إدخاله إليه، وعندما شرع الرجل بالتفاخر بنجاحاته الفردية في القتال، وكان يتبجح بصخب، نصحه الامبراطور بلطف، أن يكون حذراً لدى مقابلة الاتراك الذين لا يتقيدون في الغالب بقواعد الفروسية التي تتحكم في الصراع الفردي بين فارسين مسيحيين، وعندما انتهت المأدبة وقدم جميع الحضور يمين الولاء نقلوا عبر البوسفور لينضموا إلى جيش غودفري.

ومرة أخرى كان ألكسيوس موفقاً في الوقت المناسب، فبعد أيام قليلة وصل الأمير النورماندي بوهيموند من منطقة تورانتو إلى القسطنطينية بعد رحلة

سلمية لا أحداث فيها، وصل على رأس جيش أصغر من جيش غودفري، ولكنه كان حسن التدريب والتسليح، ومؤلف من النورمانديين الذين كانوا جنوداً بالفطرة، وخاف الامبراطور ألكسيوس كثيراً من بوهيموند الذي كان ابناً لمغامر نورماندي سيء السمعة يدعى روبرت جويسكارد الذي انتزع لنفسه الدوقية بقوة السلاح في المقاطعة الإيطالية الجنوبية ابوليا ولم يكن قد مضى وقت طويل منذ غزوه الامبراطورية البيزنطية، ومساعدة بوهيموند له في نشر الارهاب حيثما توجه، أما بالنسبة لبوهيموند الذي كان مخلوقاً عظيماً من الناحية الجسدية، فقد أربك الأميرة أناكومينا[1] فكتبت عنه تقول: «لم يشاهد مثل هذا المرء من قبل في الأراضي الرومانية، حيث كان أطول من أي شخص آخر بمقدار قدم أو أكثر، وكان أهيف الوسط ضيق الوركين عريض المنكبين، ذا صدر كبير، وذراعين ضخمتين. . . كما كان ذا يدين قويتين وحنجرة عضلية مفتولة، يقف باتزان وثبات تامين كما كان ذا إحدداب قليل، أما لون شعره فذهبي أحمر متدل قليلاً فوق كتفيه مثل بقية البرابرة، لأنه لم يكن يهتم به، في حين كان وجهه حليقاً نظيفاً أما عيناه الزرقاوتان الصافيتان فتخترقان الروح، وتوحي بالجلال مثل أنفسه، وكان ثمة سحر خاص يحيط بهذا الرجل، ورغم ذلك فقد كان هناك شيء مرعب فيه بسبب حجم جسده، وكان الوميض في عينيه يكشف عن القوة والوحشية، وحتى ضحكته كانت تبدو مثل الشخير. . . لأن هذا الرجل كان ذكياً وسريع الريب بالآخرين، كما كان ذا مزاج متقلب وحزين، وقد ترك بلاده حيث لم يكن لديه ما يملك، ليتعبد أو هكذا قال، عند الضريح المقدس، ورغم ذلك فقد كان بحاجة إلى كل شيء، وقصد في الواقع أن يسير على خطى أبيه، وأن يتغلب، إن استطاع، على امبراطوية ما في الشرق». وكانت آنا على حق فيما قالت عنه، وفوق ذلك لم يكن لدى

(1) ابنة الامبراطور ألكسيوس كتبت عن حياة والدها كتاباً اسمه «الالكسياد» يعد على رأس مصادر الحملة الصليبية الأولى، وترجمت مؤخراً القسم المتعلق بالحروب الصليبية من هذا الكتاب وهو يطبع الآن.

بوهيموند أية نية في كشف ما في يديه قبل أن يضطر، ولم يحدث لدى وصوله القسطنطينية أية صعوبات في تقديمه يمين الولاء لوالد آنا، عندما ركع أمام ألكسيوس وأقسم قسم الاخلاص بجلال بغض النظر عما يمكن أن يسره من خطط في مستقبله.

أما أضخم الجيوش الخاصة التالية فكان بقيادة ريموند الرابع كونت سانت جايل (صنجيل) أمير منطقة تولوز وماركيز منطقة بروفانس، وكذلك أدهمر أوف مونتيل أسقف منطقة لي بوي الذي كان يعتبره الجميع القائد الروحي لكل الحملة الصليبية، وكان وحده مسؤولاً أمام البابا، وكان ريموند صاحب تولوز رجلاً في الستين، له أملاك ضخمة في لونغدوك وبروفانس، واعتبره البيزنطيون قائداً متمدناً وموثوقاً أكثر من القادة الغربيين الآخرين، وكانت رحلتهم شاقة فقد اصطحبوا العديد من النبلاء من جنوب فرنسا، وبعكس أولئك الذين سبقوه، قاد ريموند رجاله خلال شمال إيطاليا، وجنوباً خلال جبال دالماشيا، ولم يكن ثمة خيار حكيم للطرق التي كانت سيئة إضافة إلى الصعوبات في الأرياف، في حين كان الشعب المحلي معظمه من السلاف المعادين والقليلي التمدن، وظهرت البربرية جيداً في حادثة خلال رحلتهم، ووصفها القسيس ريموند أوف أغولير الذي كان قسيساً ملحقاً بريموند أمير تولوز حيث كتب يقول: «كان الكونت ورجاله عند المؤخرة عندما أعيق وبعض رجاله من قبل بعض السلاف، فقام بالهجوم وأسر ستة منهم، وعندما تحشد أمامه سلاف آخرون بوحشية واضطروه على اللحاق بجيشه وأصدر أوامره بقلع عيون بعض الأسرى، وقطع أرجل آخرين وتشويه أنوف وأيدي الباقين، وبذلك أعاق تقدم مطاردية عند رؤيتهم للأسرى والحزن على ما أصابهم من العذاب، في حين كان قادراً، ومعه مرافقوه على النجاة دون أذى، وخلال طريقه، أنقذ من الموت برحمة من الرب وكذلك من أخطار ذلك المكان»، ومن الصعب لأناس من العصور المتأخرة المختلفة أن تفهم دور رحمة الرب في تلك الحادثة الدموية الصغيرة، لكننا ولن نتمكن من فهم العصور الوسطى أو

الحروب الصليبية، إذا نحن أخفقنا من فهم مدى إخلاصهم وعمق تمسكهم برحمة الرب أثناء مثل تلك الحوادث.

وحتى عندما عبر صليبيو ريموند خلال بلاد السلاف ثم دخولهم الامبراطورية البيزنطية قرب ديرا خيوم لم تتوقف مشاكلهم، وقد كانوا غير منظمين على نحو مخيف. ودفعتهم محاولاتهم المتكررة لسلب الريف خلال عبورهم أخيراً ـ إلى الاصطدام مع قوة حماية من البشناق. كما أثيرت العواطف أكثر فأكثر، وبدأت تشتعل الأمزجة غيظاً، وأخيراً، وقعت معركة ضارية بين الصليبيين وبعض فرق بيزنطية أرسلت لمساندة قوات البشناق وهزمت قوات الأفرنج هزيمة ساحقة، أما الباقون فعوقبوا إلى درجة لم يسببوا أية مشاكل أخرى خلال مدة استمرار رحلتهم إلى القسطنطينية، حيث وصلوها في نهاية شهر نيسان بعد فترة وجيزة من عبور رجال يوهيموند البوسفور.

وكان هناك ثلاثة جيوش خاصة أخرى قارب تعداد رجالها عشرة آلاف من الأشداء، ومرة أخرى نعود لنؤكد صعوبة تحديد العدد وذلك لكون المدونات لذلك العصر كانت تبالغ دوماً، وقاد تلك الجيوش روبرت أوف فلاندرز، وسافروا معاً معظم طريقهم، فقد كانوا من نوع مختلف في القدرات والأمزجة، وكان روبرت أوف نورماندي الابن الأرشد لوليام الفاتح[1] وكان رجلاً متوسط العمر ناعماً قليل التأثر ـ نوعاً ما، وكان على خلاف مع أخيه وليم روفس ودخل في حرب على نحو متقطع معه منذ موت والدهما: وهي حالة من الصراع لا يلام فيها روبرت لأن الأخ الأصغر اعتاد غزو دوقية أخيه، وكان روبرت قد استجاب لدعوة البابا أوربان من أجل حملة صليبية بكل حماس مخلص وورع، واصطحب معه أودو أسقف منطقة بايوكس. وكذلك عدداً كبيراً من نبلاء منطقة نورماندي، والقليل من بريطانيا من بينهم أيرل منطقة نورفولك الذي كان يعيش في المنفى في منطقة بريتاني في ذلك الوقت.

(1) دعي بذلك لفتحه انكلترا إثر نصره في معركة هيستنغ سنة 1066م.

أما ستيفن، فكان شخصية مختلفة تماماً، وليس لديه حماسة للحملة الصليبية، بل تزوج من أديلا ابنة وليم الفاتح، التي اضطرته إلى الذهاب، وهكذا ذهب، وليس هناك مجال لكلام فارغ وهراء حول من اتخذ القرار: ولابد أنها هي، وذهب معه قسيس دعي فولشر من منطقة تشارتز، الذي أصبح مؤرخاً رئيسياً للأحداث التالية، وكان لدى الكونت روبرت من منطقة فلاندرز وهو أصغر من الاثنين الآخرين شخصية مروعة أكثر منهما، ولدى انضمامه للحملة الصليبية كان لديه شعور يتبعه في خطوات والده، لأن الرجل الأكبر كان قد قام بحجة إلى القدس قبل ما يقارب عشرة سنوات، وخلال طريق عودته مكث فترة وجيزة في القسطنطينية.

ولدى زحفهم جنوباً عبر إيطاليا معاً انقسم الجيش إلى قسمين. فأبحر روبرت أوف فلاندرز وتابعوه مباشرة من ميناء باري وقادهم بأمان ودون حوادث إلى القسطنطينية، التي وصلها بعد وصول بوهيموند بوقت قصير. أما روبرت أوف نورماندي وابن حماه، فقد قررا إمضاء الشتاء للراحة في جنوب إيطاليا قبل متابعة طريقهم، ومع مضي الأشهر بدأ جيشهما بالتحلل قليلاً حيث بدأت حماسة رجاله بالانحسار، وقررت مجموعات قليلة العودة إلى الوطن، وعندما قرر القائدان أخيراً أن يركبا البحر مع رجالهما عند برنديزي أصابتهم نكبة من نوع نكبات العصور الوسطى، وانقلبت أول سفينة تغادر المرفأ، وغرقت بجميع ركابها مع قطيع حيوانات وخزينة الأموال ومستودعات المؤن، وفزع أولئك المنتظرون ليبحروا على مركب آخر، ولم يمض كثير من الوقت قبل انتشار أخبار ظهور جثث الرجال الذين غرقوا معلمين بإشارة الصليب على جلود أكتافهم، كما قال فولتشر أوف تشارترز، «ولم تكن تلك المعجزة مفاجئة لأي شخص لأن ـ ولنقتبس كلام فولتشر ثانية: «ـ الحجة جعلتها واضحة بالنسبة لأولئك الذين يلحقون بها السمعة السيئة، إنها كانت مناسبة جيدة لهؤلاء الموتى الذين حصلوا على رحمة الرب وسلام الحياة السرمدية في تنفيذ واضح وجلي للنبوءة التي كتبت. فقط أولئك الذين أخذهم الموت قبل النضوج

سيجدون السلام». ورغم أن صليبيين آخرين لم تفاجئهم هذه المبالغة في قوة الرب، فهي لم تنجح كلية في إعادة الشجاعة لجميع أولئك المنتظرين ليبحروا على السفن الباقية بالإضافة إلى هجرة بعضهم، ولكن معظمهم حافظوا على نذورهم كصليبيين، تاركين أنفسهم لتنقل عبر البحر إلى دير أخيوم دون مزيد من الخسائر بعد العبور القاسي وغير المسر ومن ثم إلى القسطنطينية التي وصلوها في شهر أيار حيث سحرتهم المدينة.

وأبهجت أيضاً فولتشر أوف تشارترز حيث كتب: «آه.. يا لها من مدينة جميلة ونبيلة! كم فيها من الأديرة والقصور التي بنيت جميعها بإعجاز، وكم فيها من الأعاجيب لترى حتى في الشوارع والساحات، إنه من الصعب سرد كميات الذهب والفضة والأثواب المتنوعة والآثار المقدسة التي تشاهد هناك، حيث تجلب جميع الأشياء اللازمة للانسان إلى هناك باستمرار عن طريق الزوارق، ولم يكن ستيفن أوف بليوس أقل تأثراً بالمدينة، ولكنه احتفظ بإعجابه الكبير للامبراطور الكسيوس الذي كان كريماً إليه، ولطيفاً معه، كما كان مع بقية اللوردات الغربيين الآخرين الذين أمطرهم بالهدايا والتحف حالما أقسموا بمين الولاء، حيث كتب إلى أدلاء زوجته: «إن أباك يا حبيبتي أعطى عدة هدايا، ولكنه لا يقارن بهذا الرجل»، ولا يستطيع المرء التوقف عن العجب بكيفية رد فعل أدلا ودهشتها بالنسبة لهذه الملاحظة عن أبيها وليم الفاتح، ونظراً لأن زوجها كان بعيداً قرابة من ألفي ميل لعله لم يبال كثيراً بردة فعلها.

وفي تلك الأثناء كان ألكسيوس موضوع إعجابه، يتنهد بشكل عميق نتيجة شعور بالراحة لأن آخر جيوش الصليبيين نقل بأمان عبر البوسفور إلى آسيا، وعن طريق ممارسته الصبر والثبات والجلد والدبلوماسية والكرم كان قد نجح إلى حد ما في استيعاب سلسلة من الجيوش الأجنبية المروعة داخل امبراطوريته دون نكبات، في حين أرسلهم أيضاً في طريقهم لمقاتلة أعدائه، وهو قد فعل ذلك على نحو أكثر إنسانية ليضمن ذلك، وهم عندما يقومون

بذلك فهم يمثلون دوراً كتابعيه، أما وأن يحنثوا بإيمانهم فليس هذا خطأه، كما يمكن الافتراض أنه ليس خطأ المقسمين بإيمانهم أيضاً. ذلك لأن الإيمان أمور هشة في أحسن الأوقات، وعندما تجعلهم يشعرون بالإعاقة في إحدى الحركات الكبرى للتاريخ فإنهم نادراً ما يكونون أقوياء بما فيه الكفاية لمنع الرجال من التخلي عن الطريق الشاقة للشرف والإخلاص، ولما عبرت الفروسية غير الرحيمة والقليلة التنظيم والوحشية وحتى الحالمة للعالم المسيحي الغربي عبر البوسفور تحت عيون الرقابة لألكسيوس وأخوانه البيزنطيين، كانت قد بدأت ثقافتان في الاندماج، كانت إحداهما قديمة جداً ومتمدنة كثيراً وسباقه في سمو قوتها العملية، بينما كانت الأخرى قد خرجت للتو من بربريتها الكلية وهي مفعمة بالطاقة الصلبة غير المحدودة وبالإبداع الفني الجديد، وقدر للصغرى أن تشغل دوراً كبيراً في تدمير الكبرى ولكن ما من أحد كان يعلم آنذاك حيث كانتا تعتقدان أنهما حليفتان.